البحث عن الذهب

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وجدت صديقى ينتظرنى — كما وعد — فدخلنا معاً وجلسنا متقابلين إلى مائدة صغيرة ، وبدأنا بأيدينا ففركناها — فقد كان البرد شديداً ، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش ، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفى لانتقال الدفء إلى أبداننا . ثم أكب صاحبى على البيان الذى فيه ألوان الطعام وجعل يسردها لى لأتخير ما يطيب لى منها . وفرغنا من ذلك بعد طول التردد وانصرف العامل بدفتره الذى دوّن فيه ما طلبنا . فقال صديقى وهو يميل على المائدة :

« والآن ما العمل ؟ »

قلت : « هذا هو السؤال الأبدى ! وما أظن بنا إلا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر — طال أم قصر . . المسألة مسألة حظ يا صاحبى »

فقال : « كلا . . لا بد أن هناك وسائل كثيرة لاكتساب المال بسرعة . . كثيرون يفعلون ذلك . . وهذا دليل على أن الوسائل موجودة ولكنا نحن — لسبب ما — لا نهتدى إليها »

قلت : « فليكن الأمر كما تصوره ، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئاً »

قال : « ولكن لا بد أن تكون هناك وسيلة »

قلت . « إذا كان ينفعك أو يريحك الايقان من ذلك فأيقن وأرح نفسك »

فقال وهو يهز رأسه : « نحن اثنان . . كلانا محتاج إلى مبلغ حسن من المال . . والحاجة ملحة ، والسرعة لا مفر منها . . لا سبيل إلى الاقتراض لأن الذين يُقرِضون يطلبون ضماناً . . شيئاً يطمئنون به على مالهم . . سخافة ؟ ! . ولماذا ينبغى أن نرد شيئاً ؟ ؟ . ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكنزونه ويدفنونه فى خزانات أو فى قدور يدسونها تحت الأرض . . ؟ ؟ »

فضحكت وقلت : « هذه بلشفية »

قال : « لا تصدق . . آه لو كنت غنياً ! ! . إذن لصارت الدنيا أرغد وأهنأ . . »

قلت وأنا أبتسم : « ماذا كنت تصنع ؟ »

قال : « أصنع ؟ . أتسأل ؟ . . كنت أضع المال فى صرر وأرمى بها لمن أتوسم فيهم أنهم أهل لأن يكون فى يدهم مال . . (وأطرق شيئاً ثم رفع رأسه وقال) : هل تعرف أنى زرت اليوم أختى ؟ ؟ . . إنها غنية كما تعرف . . وكيف لا تكون غنية وهى لا تنفق شيئاً ؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمى لأتكلم رفعت يدها فى وجهى وقالت : « ولا مليم ! » فغضبت وصحت بها وزجرتها عن هذا السلوك »

فقلت : « ماذا قلت لها على سبيل الزجر عن هذا السلوك الذى لا يليق بين الأخ وأخته ؟ »

قال : « قلت لها ؟ . قلت لها هل تظن أنها من بوليس المرور حتى ترفع يدها هكذا لأقف ؟ ؟ شىء غريب ! فقالت بهدوء : إنها ليست هذا ، وليست كذلك وكان تسليف ! كلا لا فائدة ! . . بح صوتى معها . . أكدت لها مائة مرة أنى محتاج إلى قليل من المال ، فوافقت وأكدت لى أنى سأكون محتاجاً إلى هذا المال حين أخرج من بيتها . . سلوك يطير العقل . . فهل تسمى هذه أختاً ؟ إنى أتصور أختاً ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطينى ، وهى تعتذر ، وتملأ يدى وهى مُغضبة ... وهكذا تكون الأخت ... أما هذه ؟ . . . أعوذ بالله ! . . على كل حال لا فائدة . . وإنما أردت أن أقول لك إن هذا الباب أيضا سد فى وجهى »

فقلت : « لماذا لا تفكر فى طريقة لكسب المال ؟ »

قال بلهجة الاستكبار : « أفكر . . وما الفائدة من التفكير ؟ لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة . . آه لو كان لى سلطان فى هذه البلاد . . إذن لعقدت امتحاناً كل ثلاثة شهور للأغنياء . . . يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغنى فيقول له أحدهم : « كم تملك يامولانا ؟ » فيقول : « ألف فدان ، ونحو مائتى ألف جنيه فى المصرف وعمارتين — كلا منهما ذات سبع طبقات فى شارع الملكة نازلى » فيقول أحد الأعضاء « وماذا تصنع كل هذه الثروة » فيقول « أوه لا أصنع شيئا . . كل ما زاد على حاجاتى الضرورية جدا أضيفه الى المدخر » فتقول اللجنة : « شىء جميل... أهذا رأيك فيما ينبغى أن يصنع المرء بالمال ؟ . . لا بأس . . اسألوا أحمد (أى العبد الخاضع المطيع) ماذا يكفيه ؟ » فأقول ردا على

السؤال :« أوه . . يكفيني القليل . . خمسون ألفاً . . كفاية . . أعني مؤقتا . . » فتقول اللجنة : « أحد هذا رجل يحسن انفاق المـال . . اعطوه ما يطلب » فأقبض المبلغ وأفرك يدى وأقول « إذا سمحتم لى يا حضرات الأعضاء الموقرين فأنى أستأذنكم فى لفت نظركم الى رجل يعرف كيف يعطى . . . بارع جـدا فى الانفاق » فيسأل أحدهم « من هذا . . . قل بسرعة » فأقول « إنه المازنى » فيقول « آه صحيح ! .. كيف نسيناه ؟ . . هاتوه حالاً . . علينا به . . اقبضوا عليه فى حينما تجـدونه » فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا الى اللجنة فيضحك الأعضاء ويقولون « خذ . خذ . خذ أيضا » فتخرج منى مسرورا . . ونروح ننفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالى .. ما قولك ؟ »

فقلت وأنا أضحك : « شيء عظيم جدا ... ولـكن الى أن يتيسر أن تلى أمور الناس ماذا نصنع ؟ »

فقال : « آه هذه هى المسألة . . ما رأيك أنت »

قلت : « يمكننا أن نكسب الورقة الأولى الرابحة من يانصيب المؤاساة ، أو اليانصيب الارلندى »

قال :« هذا ممكن . . ولـكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور . والعجلة من الشيطان ، ولـكنه لا معدى لنا عنها — كائنة ما كانت منه . . شيطان أو غير شيطان . . سيان . . »

قلت : « صدقت .. يمكن أن نخترع شيئا ونحتكر بيعه — وصنعه بالطبع — فنغنى »

قال : « صحيح ... فكرة لا بأس بها . . . سأدون هذا فى مذكرتى . . تنفع فى المستقبل .. وعلى ذكر ذلك ماذا نخترع ؟ »

فقلت : « باب الاختراع واسع . . واسع جدا . . . مثلا نخترع طريقة تجعل السيارات تستغنى عن البنزين وتكتفى بالماء — أو حتى بالهواء — أو نخترع بديلا من النقود ، فان النقود هى أصل البلاء فى هذه الدنيا . . . أو نخترع . . »

قال : « يكفى ! يكفى ! ولـكن هذا كله يحتاج الى زمن . والمطلوب هو الاهتداء الى وسيلة تكفل إفادة المـال اللازم فى أربع وعشرين ساعة ... »

فقلت وأنا اضطجع وأرسل الدخان من فمى خيطا متلوّيا — فقد فرغنا من الطعام — : « يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة »

فقال : « معلوم . . اسمع . . أترى هذا الرجل القاعد هناك فى الركن الأيمن ؟ . أترى كيف يأكل ؟ . أترى كرشه المدوّرة كالـكرة ، ووجهه المنتفخ ؟ وكيف يفتح عيناً ويغمض أخرى وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة فى فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد ؟ . . الحق أقول لك إنى أكره وجهه ولا أرتاح إلى النظر إليـه »

قلت : « يا أخى لا تنظر إليه . . دعه وحول عينك عنه »

قال : « ولـكنى لا أستطيع . . إنه وجه سوء . . لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير . . إنه ممن لا يؤتمنون على القصر والأيتام والأرامل . . »

فضقت به وصحت « ولـكن مالك أنت ؟ . دعه وشأنه . . أليس له حق فى أن يأكل هنا مثلى ومثلك ؟ »

قال : « يا أبله . . إن هذا الرجل لا بد أن يكون منطوياً على أسرار يكره أن تذاع . . لأن وجهه ناطق بأنه شرير . . فلو قمت إليه الآن وقلت له : « طيب . طيب » كأنى أعرف سره الذى يجاهد لاخفائه ألا تظن أنه يفزع ويضطرب ويشترى سكوتى بأى ثمن . . »

فقلت : « أها ؟ . أهذه طريقتك ؟ . أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل ؟ . . »

قال : « المصيبة أنى لا أستطيع . . تنقصنى الشجاعة . . ولـكنى واثق أنى أنجح إذا استطعت أن أصنع هذا ؟ . . ومع ذلك لـكل إنسان سره القبيح . . ولو أن واحداً جاء إلى ووقف على رأسى الآن وحدق فى وجهى ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك ثم قال « طيب ! طيب ! يا أحمد » لـما وسعنى إلا أن أضطرب . . على كل حال يظهر أنه لا فائدة . . لا أمل فى مال كثير نفيده بالسرعة اللازمة . . »

قلت : « صدقت . لا أمل »

قال : « خسارة . . سأظل أتحسر لأنى لم أجد الشجاعة الـكافية للوقوف على رأس هذا المجرم — هو مجرم ولا شك — وإبلاغه بعينى أنى لا أعرف باطنه كما أعرف ظاهره البادى لنا .. خسارة . . نهايته

. . . نقوم ؟ »

قلت : « تفضل »